وادي الظلال

الجزء الأول

الفصل الرابع

جلست والدتي في فناء الدار الداخلي قرب البئر الحجري ترضع هشام. كانت ترتدي ثوبا منزليا أبيض من الأطلس الدمشقي المطـرز فـوق قمـيص نومهـا الحريري، وقد ارتسم على وجهها الحنطي الباسم الجميل الخـالي مـن أي أثـر للزينة، الذي تضيئه أشعة شمس العصر المتسللة من بين تربيعات عريش دوالـي العنب العارية في ذلك الوقت من السنة، تعبير هادئ مطمئن هو مزيج من الحنان والسكينة. ذلك التعبير الأزلي الذي أضاء على مر العصور وجوه الأمهات عنـد احتضانهن لأطفالهن الرضع. كانت عيناها الكستناويتان الحلوتان تفـصحان عـن روح متوقدة وطبيعة نشطة لا تهدأ، وشعرها البني الغزير ذو التموجات الخمريـة ينسدل فيغطي كتفيها وظهرها. ولطالما ألهم شعرها والدي وأجج عاطفته، وأذكـر كيف استشاط غضبا رغم طبيعته الهادئة عندما قصته قصيرا، حسب الموضة، بعد عدة سنوات، وكان الشيب قد بدأ يغزوه وأخذ يفقد حيويته، ليسهل عليهـا صـبغه والعناية به. لقد هددها بالطلاق وبأن يتزوج عليها، وهي تنظر إليه باسمة كأنهـا ترى في غضبه دليلا على حبه لها، فشعر بالحرج ولم يحر جوابا وخـرج مـن الغرفة محتقن الوجه!

تزوجت والدتي صغيرة السن، ولما تبلغ السادسة عشرة من عمرهـا، علـى عادة فتيات عصرها. وعلى الرغم من فارق العمر الذي يبلغ سبعة عـشر عامـا بينها وبين والدي فقد عاشت معه بانسجام. كان هذا هو الزواج الثاني فـي حيـاة والدي، الذي عاد من سفر براك، بعد غيبة طويلة انقطعت أخباره أثناءها، حتـى حسبه الجميع قتل في الحرب، ليجد أن زوجته الأولى هجرتـه لتتـزوج غيـره وتركت ابنتها الوحيدة، أختي الكبرى نعمت في عهدة والدته. فأخذتها أمـي فـي

كنفها ورعتها مع أنها كانت تكبرها بثماني سنوات فقط، وعاملتها كأخت صغيرة، فتوطدت صلة أشبه بالصداقة بينهما. ولم تلبث والدتي أن أنجبت لوالـدي الأبنـاء واحدا تلو الآخر، فأفرحت قلبه المحب للأولاد. وعاشت نعمت في بيتها الأبـوي تساعد والدتي في واجبات إدارة المنزل والعناية بالأطفال حتى مولد خالد، حـين زوجها والدي من تاجر ميسور الحال أثناء إقامتنا في اللاذقية، فغادرت منزلنا إلى دار الزوجية. كانت تلك الأيام ما تزال أيام رخاء، ولم تكن هناك ضائقة قد ألقـت بثقلها علينا بعد، رغم أن وضع والدي المادي تراجع تراجعا مستمرا منذ عودتـه من الحرب.

كان والدي كريما، وفي أيام بحبوحته وازدهار أعماله كان يغدق على والدتي وعلى من حوله. وتذكر والدتي كيف أخرجها من منزل أسرته الكبير في دمـشق بعد ولادة عبد الرحمن، واشترى لها منزلا مستقلا جميلا في البرامكة نقلها اليـه غير مصغ لمعارضة أهله. وأتى بخادمة لمساعدتها وطباخة وحوذي وعربة تقف بباب المنزل، وغمرها بالملابس والمصاغ وكل ما تشتهي نفسها. وكانت ولائمـه للناس لا تنقطع، ولكن الحال لم يدم على هذا، واضطرته موارده المتقلصة أن يحد من نفقاته لكنها لم تغير من طباعه. ولم تبخل والدتي على والدي في أيام ضـيقه. فكم من مرة وهبته مصاغها ليخرج من أزمة ألمت به، وحالما تنفرج أموره كـان يعوضها بأكثر مما أعطته، إلى أن طغت أيام الشدة على أيام الفـرج، وتقلـص مصاغ والدتي باستمرار حتى لم يبق لديها منه يوم خرجنا من فلـسطين لاجئـين سوى خاتم الزواج في إصبعها. أما مصاغي فلم يمسّ وكانت تخبئه لي في كـيس تعلقه في حمالة ثدييها..

قرع باب الدار ودخلت والدة أحمد وشقيقتاه اللتان تكبرانه تتبعهن سلوى ثـم هو حاملا مهدا خشبيا لطفل رضيع. وأهلت بهم والدتي متهللة الوجه، وتبادلـت النساء القبلات.

- ما شاء الله! دقوا على الخشب. أنت ما زلت نفساء وتجلسين هنا بدلا مـن الجلوس في سريرك.

- لماذا كلفت نفسك هذا العناء يا أم أحمد؟

- لقد أخبرتك قبل الولادة أن المهد علي.

كان مهدا صغيرا جميلا مصنوعا من خشب الزيتون.

- لا تتعب نفسك يا حبيبي. دعه هنا وسندخله إلى غرفة النوم فيما بعد، قالت والدتي لأحمد ملاطفة. ويبدو أنه لم يكن قد رآها من قبل بملابس المنزل من غير زينة، فنظر إليها مندهشا، وأجاب ممازحا:

- ولكن يا خالتي حقا لم ألحظ من قبل أن عينيك صغيرتان!

وفوجئت والدته بتعليقه وقالت غضبى:

- أحمد! ما هذا الكلام؟ هيا إحمل المهد إلى غرفة النوم ثم انصرف عائدا إلى المنزل.

وأغرقت والدتي بالضحك:

- "لولا علبة مكّي كانت الأحوال بتبكّي"، ثم أردفت:

- لن يذهب قبل أن نضيفه شيئا. والتفتت إلي:

- سلمى! أحضري الشوكولاتة والملبس.

كانت والدتي بارعة بالإكتحال ككثيرات من النساء العربيات، فتضفي لمسة فنية على جمالها الطبيعي. بعكسي أنا، فلا أدعي أنني ورثت هذه المهارة عنها! وعندما تنتهي من زينة وجهها كانت تبدو امرأة مختلفة.

عدت بالضيافة، وكانت النسوة ما زلن ملتفات حول أمي وهشام يحتفين بمعجزة الحياة التي أنجبتها. وبدا أحمد متبرما بهذه الصحبة النسائية الصرفة ويريد الانفلات، وعندما ضيفته نظر إلي وابتسم متوددا كأنه يدعوني لطي صفحة الخلاف الذي نشب بيننا في ساحة الحرم، فبادلته الابتسام مصالحة، وغادر مسرعا.

- إنه يشبهني، أليس كذلك؟ سألت أمي بفخر وهي تعرض هشام على النسوة اللواتي أكّدن أن له نفس ألوان شعرها وعينيها وبشرتها.

- ولكن فمه وذقنه كأبيه، قالت الأخرى.

ولم أر فيه ما يرينه. فقد بدا لي كائنا صغيرا هشا دقيق الملامح يميل الى الحمرة ويشبه جميع الأطفال حديثي الولادة.

وأصرت الزائرات أن تلازم والدتي سريرها حتى لا تصيبها الأعين الحاسدة بأذى! فانصاعت لإلحاحهن، ودخلن غرفتها الواسعة. جلست في سريرها بعـد أن وضعت الصغير في مهده وطلبت مني أن أناولها علبة زينتها ومرآتهـا اليدويـة، وأخذت تتجمل في فراشها وهي تقول:

- حتى لا يلاحظ أحد أن عيني صغيرتان.

وضحكت النسوة.

دخلت رجاء وسعاد تتراكضان، وكنت أجلس مع سلوى قرب المهـد نهـزه، ونرضي أمومتنا الكامنة بمراقبة الصغير والتعليق على حركاته. وسـرعان مـا تسللت سعاد السرير عندما رأت أن مكان غريمها في حضن والدتها خال واحتلته.

وأتت رجاء إلينا لتشاركنا اهتمامنا.

- سلمى انظري! إنه يمسك بإصبعي بشدة ويرفض أن يفلتها، هتفـت رجـاء وقد حشرت سبابتها في يد هشام، فأطبق عليها بشدة بقبضته الصغيرة.

- هيا يا حبيبتي لندعه ينام.

أخذت والدتي تستعرض الملابس التي خاطتها للصغير، والنسوة يثنين علـى ذوقها ومهارتها في الخياطة والحياكة، بينما رحت أتبادل الحديث مع سلوى عـن المدرسة والمدرسات. ولا أذكر كيف أوصلنا الحديث إلى كتـاب كليلـة ودمنـة، وكان منهاج اللغة العربية لا يخلو من بعض قصصه، واختلفنا على بعض ما جاء فيه. وأعتقد أني أخبرت سلوى أن الكتاب موجود عندنا في مكتبة والـدي وأنـي قرأته كله، ثم أحضرته ورحت أقرأ منه لأثبت وجهة نظري. لكني أذكر جيـدا أن الصمت ران على الغرفة عندما كنت أتلو الفقرة. كانت النسوة يصغين باهتمـام، وعندما انتهيت منها طلبن مني أن أعيد القصة كاملة. فرحت أقرأ بانطلاق فرحـة بإبراز موهبتي في أمر أجيده. كانت قصة إيلاذ وبلاذ وإيراخت، وقد لاقت حكمة الملكة إيراخت ومصيرها هوى في نفوس المستمعات وتعاطفن معها. كانت والدتي تصغي وتهز رأسها، وقد ارتسم في عينيها تعبير أقرب إلى الدهشة، كأنما تكتشف جانبا في ابنتها كانت تجهله، وابتسمت باعتزاز عندما أنهيـت القـصة وراحـت الزائرات يمدحنني. لكن الحديث لم يلبث أن اتخذ منحى محرجا لم يرضني!

قالت والدة أحمد:

- ما شاء الله! عندك ابنة كاملة الخصال يا أم عبد الرحمن: جمال وأخـلاق وذكاء، ثم تابعت ممازحة

- كم أحب أن أتخذها كنة لي، فهل تعطيني إياها زوجة لولدي أحمـد حـين تكبر؟ ما رأيك؟

وضحكت والدتي وضيفاتها:

- الرأي رأي سلمى، هه! ماذا تقولين يا سلمى، هل نزوجك لأحمد؟

ونظرت إلى والدتي مغضبة وقد تضرج وجهي ولم أجبها، بل التفـت إلـى سلوى قائلة:

- هيا لنذهب إلى المطبخ لنحضر القهوة.

وانفلت خارجة من الغرفة تلاحقني ضحكات النساء.

تلكأت سلوى خلفي، ولما كنت أعبر الفناء الداخلي إلى المطبخ سمعت صوت إطلاق رصاص من مكان بعيد. وسألتها عندما لحقتني إن كانت سمعت ما سمعته، فأجابت بالنفي. ولم يلبث الباب الخارجي أن قرع قرعا وجلا ملحاحـا، فـذهبت لأفتحه متوجسة تاركة سلوى في المطبخ تعد القهوة. وعلى الباب انتصب رجـل ملثم بكوفيته:

- أرجوك! اسمحي لي بالدخول. إن الجنود البريطانيين يلاحقونني، لقد قتلـوا رفيقي منذ لحظات.

ولم ينتظر موافقتي، بل أزاحني جانبا، وعندما أصبح في الداخل أغلق الباب خلفه واستند عليه متلاحق الأنفاس. كنت أقف صامتة مشدوهة، وقلبـي يطـرق بعنف. لم أكن خائفة، بل أشعر بانفعال شديد، فتلك كانت المرة الأولى في حيـاتي التي أقترب فيها من الأحداث التي عصفت ببلادي. ولم يكـن والـدي ولا عبـد الرحمن في المنزل حين اقتحم عنف الرجال في الخارج الـسلام الهـش لمملكـة النساء الذي كان يرفرف منذ لحظات في الداخل. وشعر الرجل باضطرابي فنـزع كوفيته في محاولة لبث الطمأنينة في نفسي:

- ساعديني، ولك الثواب عند الله! قوديني إلى سطح منزلكم، وسأجد طريقـي عبر الأسطح المجاورة إلى الحارة الأخرى؛ قال الشاب وهو يحـاول أن يـسيطر على تهدج صوته، وفي عينيه نظرة من وضع مصيره بين يدي راجيا ألاّ أخذله، بينما ارتفعت في الخارج أصوات من يطلبونه.

أخذ يخفي وجهه بكوفيته من جديد، وتمتم بشيء ما. لم أنبس بكلمة، ولم أفكر بشيء لبرهة من الزمن بدت طويلة، إلاّ أن شعورا فطريا سيطر علي: إنه منـا! ورغبت بصدق في حمايته.

وفجأة أمسكت بيده وسحبته ورائي راكضة إلى الدرج المؤدي إلى الـسطح. توقف قليلا عند الدرج، ونظر إلي بامتنان وعلى شفتيه ابتسامة ودودة وهو تحـت لثامه قبل أن يقفز الدرجات مثنى مثنى، وعندما أصبح في أعلى السلم التفت إلـي فلوحت له بذراعي مودعة، ثم تسلّق الحائط الذي يفصل سطحنا عن سطح الجيران واختفى خلفه.

حصل كل ذلك في دقائق معدودة، حتى أن أحدا لـم يلحظـه. واعتـصمت بالصمت فلم أتحدث بالأمر، وجلست بين النساء مـشغولة البـال، لا أدري هـل أحسنت التصرف أم لا. وانتبهت فجأة من أفكاري على دوي طرق البـاب الـذي تردد صداه في جميع أنحاء المنزل وصوت تخالطه لكنة أجنبية:

- تفتيش.. تفتيش.

وتسارعت نبضات قلبي وأنا أصغي إلى صرير الباب، وسمعت صوت أديب يحاور الطارق، وهرعنا جميعا إلى خارج الغرفة.

سألت والدتي بقلق:

- أديب من هناك؟

- جنود بريطانيون يريدون تفتيش المنزل.

كان الليل قد أرخى سدوله، وتعالت أصوات النسوة:

- قل لهم ليس في المنزل سوى النساء. ليذهبوا الآن ويعودوا فـي حـضرة الرجال.

دفع الجنود أديب وخالد اللذين اعترضا سبيلهم، وانتشروا في المنـزل غيـر عابئين باحتجاجات النسوة.

- أديب! اهرع إلى عمك أبي أحمد وأعجله بالحضور، هتفت والدة أحمد.

- خالد، أنت تعال هنا! صاحت والدتي بخالد الذي أراد اللحاق بأديب، وهـي تهدهد هشام بين ذراعيها لتهدئ عويله.

كنت أقف مضطربة الأنفاس أحتضن بكلتا ذراعي سعاد ورجاء اللتين التجأتا إلي، فقد أيقنت أن هذا التفتيش له علاقة بالإنسان الذي ساعدته. وظننت لوهلة أنهم رأوه يدخل المنزل، لكنني طمأنت نفسي بأن تصرفهم لا يدل على ذلك، وتعللـت بأنهم اشتبهوا بعدد من المنازل حيث فقدوا أثر الشاب. وتمنيت مخلصة أن يكـون قد أفلت من قبضتهم.

- إن زوجي هو المدير العام للشرطة! وسلوككم هذا لن يمضي دون مساءلة؛ قالت والدة أحمد للرقيب الإنجليزي الشاب الذي يترأس مجموعة التفتيش محاولـة أن تحدث أثرا في نفسه.

- سيدتي! نحن ننفذ الأوامر الصادرة إلينا بالقبض على مطلوبين من سـلطة الانتداب، وتأكدي أن أحدا لن يمسسكم بسوء؛ أجاب الرقيب بلهجة مهذبـة ولغـة عربية واضحة رغم لكنته الغريبة.

ونظرت إليه بدهشة، فلم أكن أتوقع منه هذا السلوك بعد الخشونة التي أبـداها جنوده عند اقتحامهم المنزل، ورحت أراقبه. كان يقف في صحن الـدار منتـصبا بقامته الطويلة مفرجا ما بين ساقيه وعاقدا يديه خلف ظهره. ولاح الضيق علـى محياه، كأنه متبرم من القيام بعمل ليس عمله، وفي مكان ليس بمكانه، وزاد تواجده وحيدا مع النساء من إحساسه بالحرج، وبدا كأنه يناجي نفسه:

- ماذا أفعل هنا؟

أنهى الجنود مهمتهم، بعد أن فتشوا الغرف والسقائف والسطح، ولـم يـدعوا مكانا إلا ونظروا فيه، وانصرفوا مسرعين في رتل واحد يتلو بعضهم بعضا. وبعد أن غادر آخر رجل من رجاله التفت الرقيب صوب السيدات اللواتي تجمعن فـي

صحن الدار، وانتصب مطبقا عقبيه، وحياهن بهز رأسه وعلى وجهـه أمـارات الإرتياح لانتهاء المهمة الثقيلة، ثم انصرف بدوره.

وصل والدي وعبد الرحمن عقب ذهاب الجنود، وتركت والدتي ضيفاتها في غرفة نومها لتقص عليهما ما حدث، ولم تمض فترة قصيرة حتى عاد أديب ومعه والد أحمد. جلس الرجال في غرفة الاستقبال فما كان بين العائلات سفور في تلك الأيام، وأتى أديب وشفاهه باهتة لفرط اضطرابه، وكنت أقف وحدي في صـحن الدار:

- لقد رأينا في الطريق قتيلا ممدا جاحظ العينين فاغر الفم.. ولقد عرفه عمي أبو أحمد.. إنه أحد الثوار.

ولم أحتفظ بسري مدة أطول، فأنا أيضا لدي ما أحدث به، وتدفقت بـالكلام وأنا أشعر بالإثارة: كيف علمت بأمر القتيل من رفيقه الذي ساعدته على الإفـلات من قبضة البريطانيين، وعن تفاصيل التفتيش الذي أعقب ذلـك. أصـغى أديـب صامتا مكتئبا وقد ارتسم في عينيه تعبير غريب: مزيج من الحزن وفقدان الأمـان والتساؤل. كان يبدو بعيدا عني منغلقا على نفسه، وعبثا حاولت أن أثير اهتمامـه. ولم أفهم حينها سبب إعراضه عن مشاركتي حماسي، فقط بعد سنوات عدة أدركت أنها كانت تجربته الأولى المبكرة، وجها لوجه، مع الموت العنيف.

ولم تلبث أن قدمت دورية من الشرطة، كان والد أحمد قد أرسل في طلبهـا قبل مجيئه، فصرفها من الباب لأنه لم تعد من حاجة إليها. وغادر الضيوف بعـد ذلك، وانقضت الأمسية، وأطفأنا الأنوار لننام، وانقضى ذلك اليوم كغيره من الأيام، إلاّ أن أحداثه ظلت حية في ذاكرتي كأنها جرت الأمس القريب.

أما أديب فلعلّ رهبة الموت الذي شاهد عليه الثائر الشهيد كانت باعثة علـى الصلاة في الأيام والأسابيع التالية، ولو أنها ما لبثت أن غيبتها في مكان سحيق من نفسه مشاغل الطفولة الدفاقة.

* * *